من كتاب كليلة ودمنة

القرد المدلل

للأستاذ ضياء ابراهيم مصطفى

قال كليلة وهو يلقّن دمنة مبادىء السياسة ، ويدرّبه على أعمال القيادة ، ويبصره بنواميس الحياة ، ويعرّفه بعوامل النقص في الدولة ، ويزوّده من حكمته ، ويهيه من تجاربه : —

واعلم يا دمنة أن مملكتنا هذه لا تصلح إلاّ إذا زاول كل فرد فيها عمله الذي هيء له ، وقام فيه كما ينبغي ، وأتى كل ذي حق حقه وترك لكل ذي فن فنه الذي هيأته له مواهبه واستعداده ، يجيل فيه بصره ، ويعمل فيه رويته ، ويعرف قدر نفسه فوضعها في موضعها غير متنقل بها إلى حيث تنحط ، أو متعال بها الى حيث تزل فتهوى ، ولا تزال تهوى . وقد قال الحكماء : إن أول أبواب المعرفة أن يعرف الانسان نفسه ، وأن يزلها منزلتها من هذا العالم ، وقالوا : من ذهب بنفسه عن معرفة وجدها ، ومن ذهب بها عن جهل فقدها .

واعلم يا دمنة أن المتصدي لما لا يحسن — اغتراراً بنفسه أو تهالكاً على الزعامة — كالمقصّر في أداء ما يحسن ، كلاهما هدم في كيان الأمة ، واختلال في شخصيتها ، وإسراع بها في سبيل الفناء العاجل .

وقد قال الحكماء : ينبغي للعاقل أن يحكّم عقله في ثلاثة أمور : إذا دعي لمناصرة الباطل ، وإذا استخدم أداة للشغب ، وإذا عادى من هو أقوى منه .

وأن يلازم ثلاثة أشياء : الاخلاص ، والقناعة ، والتواضع .

وأن يجتنب ثلاثة أشياء : استخدام الدين للدنيا ، والدخول فيما لا يحسن ، ومنازعة أصحاب الحق بالباطل .

ونحن يا دمنة أن الله قد خلق خلقه متفاوتين في الذكاء والاستعداد، والقدرة على احتمال الواجب والاخلاص في أدائه، ويسر كلاً منهم للعمل الذي يتكافأ ونصيبه من هذه الموهبة، ليتناسب الإنتاج والجهد، وتتصعد خطا الحياة في سبيل الكمال المنشود، فلا ينبغي للإنسان أن يتورط في عمل لم يخلق له، أو يطلب فوق ما يهيئه له احتماله واستعداده وذكاؤه، ولا يحاول أن يتسنم منزلة فوق منزلته بالمغالطة والمكابرة والتبجح، وإلا أصابه ما أصاب «القرد المدلل» الذي ساقه غروره وحماقته إلى الحتف السريع من حيث لم يحتسب.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟ قال كليلة: —

زعموا أن سفينة أبحرت ذات يوم تبتغي بر السلامة، وكان الطريق طويلاً شاقاً، وقد قدر ركابها أنهم سيغادرون المعمورة ضاربين في بيداء المحيط أمداً مديداً، ربما جلب عليهم السآمة، فاستصحبوا معهم قرداً يسليهم بحركاته، أو يرفه عنهم بألاعيبه بعض عناء الطريق ووعثاء هذا العباب الزاخر المتقلب.

سارت السفينة يحدوها الرجاء الواسع ويزجيها الأمل البسام، تداعبها الأمواج، وتبسم لها السماء حيناً، ويكشر لها البحر وتزأر حولها الرياح أحياناً، وهي ماضية إلى هدفها، تهزأ بالصعاب، وتهزم العوائق، والقرد الخفيف يتنقل في أنحائها، ويتأرجح على شرفاتها، متنقلاً هنا وهناك، مقلداً هذا في مشيته وذاك في جلسته، وماذا يجيد القرد غير التقليد الأعمى، والقرد إذ يحاول ذلك فإنما يقلد لا فيما انتهى إليه الرأي، ولكن فيما انتهى منه الرأي.

وكان بين الركب زاهد حسن السمت، بهي الطلعة، لا ينفك يزاول شعائر الدين، فلا يرى إلا ساجداً أو قائماً، وأولع القرد بحركاته فقلدها، وخرج بها إلى الركاب يلهيهم ويستجلب ضحكهم، حتى أطلقوا عليه «القرد الناسك»، وأقبلوا عليه يحتفون به معجبين بحركاته، ملقين إليه بفتات المائدة، وقطع الحلوى أحياناً، وظن القرد أن هذا الاكرام موجه إلى شخصه لا إلى حركاته، وأن شخصه جدير بالاعزاز والتبجيل، وخيل له غروره أنه أصبح ضرورة من ضرورات الحياة في هذه الدنيا الصغيرة فتدلل وتاه وتكبر ما وسعته نفسه، وحسب — من فرط الحمق — أن هؤلاء القوم لا يضحكون منه وإنما يحتفون له، وانتفخت أوداج القرد، وانتفخت أوداجه، وحدثت نفسه حديثاً، وقالت له نفسه وقال لها، أقنعته نفسه بأن في أعراقه دماً غير دم القردة، وسولت له نفسه أن يكون الحاكم بأمره في هذه الدنيا — دنيا السفينة، وماذا يعوقه عن هذا؟ بل ماذا يعوزه من سمات الحكام؟ أليس هؤلاء الأناسي مشتقين من القردة كما يعترف بعض علمائهم؟ لقد تطوروا ولكن متحدرين في طريق النقص والخسة وإلا فأين الذيل الذي أختال به؟

وأين هذا الكساء الطبيعي من الشعر الذي يدفئني ؟ وأين . . . وأين ؟

واطمأن إلى أنه في موضع بحيث لو ضرب هذه السفينة بذنبه لهوت في قاع اليم ولغرق من رحمته هؤلاء الرعايا المساكين أنه لا يفعل . . !

ووضع القرد أنفه في كل ما وقعت عليه عينه . وتغنى في قومه الأماني . وما زال يجول ويتحسس ويتلصص،حتى وصل إلى غرفة القيادة ، حيث الربان منهمك في أداء واجبه الخطير ، فتاقت نفسه أن يقف هذا الموقف ليزاول هذه المهمة الطيبة لمهمة القيادة ، وعبثاً حاول الربان أن يثنيه أو يفهمه بأن هذا عمل لم يخلق له ، ولكن بريق هذه الآلات ، وحركتها السريعة ، ودورانها المنتظم قد استهوته ، وكانت تغمره النشوة حين يتطلع إلى هذه الآلات والربان متسلط عليها ، حتى لقد خيل إليه ـ بمجرد النظر ـ أنه أصبح رباناً ماهراً لا ينقصه إلا أن يقف هذا الموقف .

وذات يوم هاجت السفينة عاصفة هوجاء متمردة ، وتذأب الجبال الطافية ، وأطبقت سحائبه ثقيلة مظلمة ، وأصبحت السفينة تضطرب بين أكف القدر ، وتتراقص على أصابع الفناء . وبينما الربان يكافح الأهوال ، ويناضل الموت ، ويستعدي أعصابه الفولاذية على الأنواء الجارفة ، والأعاصير الجامحة ، وفي مخيلته أشباح الانفجار والتحطيم ، والتدمير والغرق ، والفناء . . و . . — إذا بالقرد يقفز إلى عجلة القيادة ليلعب بها في أحرج الأزمات الفاصلة بين الموت والحياة ، ويحاول الربان إقصاءه ، فيصر . . ويستمسك . . ويتشبث ويهدد بأن يتحول إلى جانب من السفينة ، فيثقل فيه ، فيختل اتزانها . . فيغرقها . . ويندفع في هذه الثورة الصاخبة ملقياً بنفسه وسط هذه الآلات — الجاهدة الماضية في كفاحها من أجل الحياة — يريد تحطيمها أو تعطيلها . . . ولكن هذه الآلات — الجاهدة الماضية في كفاحها من أجل الحياة — تستمر في دورانها . . ولكن القرد العنيد يصبح بين لمح البصر الخاطف أشلاء متناثرة ، ولكن هذه الدماء الغزيرة تسيل على هذه الآلات الجاهدة الماضية في كفاحها من أجل الحياة فتغسلها أو تلوثها .

وتهدأ العواصف ، وتبسم السماء ، وتنفتح الآمان ويتفقد القوم القرد المدلل . فإذا هو أشلاء متناثرة تستثير الاشمئزاز ، ولكن قطنته الحمقاء تصبح سلوة الركب وفكاهته : كما كانت حياته تسلية وفكاهة ، وكان الجمهور الذي صفق له في رقصه هو الجمهور الذي صفق له في حتفه . فهذا جزاء من يغتر بنفسه ولا يقدرها حق قدرها .

قال دمنه : صدقت . وأنا فلو أتيحت لي الفرصة لوقفت على جبل المقطم أعظ الناس هناك بهذه القصة .